سلسلة أمراء النصر والتحرير

هجرة النورس

قصة الشهيد المجاهد علي نجيب مصلح

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

سلسلة أمراء النصر والتحرير

قصة الشهيد المجاهد علي نجيب مصلح

هجرة النورس

هجرة النورس

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب: هجرة النورس
نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
الطبعة الأولى تشرين الثاني 2005م - 1426هـ
جميع حقوق الطبع محفوظة

قصة الشهيد المجاهد علي نجيب مصلح

سلسلة أمراء النصر والتحرير

هجرة النورس

الكاتب: فاطمة القرصيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح من ارتقى إلى الأفلاك باحثاً عن ملاك.

الإسم: علي نجيب مدلج.

إسم الأمّ: رقيّة مدلج.

تاريخ ومكان الولادة: بعلبك ١ ـ ١ ـ ١٩٧٩.

المستوى العلمي: مهني ـ علوم تجارية

طالب حوزة لثلاث سنوات

قائد في كشافة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

تاريخ الإستشهاد: ٢ ـ ١١ ـ ١٩٩٩

موقع: الديدبة، قصف معادٍ.

فاطمة

هجرة النورس

- قصّة الشهيد المجاهد علي نجيب مدلج.
- الكاتبة فاطمة القرصيفي.
- نالت المرتبة الأولى في مسابقة أجمل قصّة شهيد حوزوي جامعي.
- نظّم المسابقة الوحدة الثقافية المركزيّة في حزب الله.
- برعاية مؤسسة الشهيد في لبنان.
- ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م.

المقدمة

عذراً أيّها الشهيد فقد انكسر القلم، جفّ الحبر وتلاشت العبارات أمام تفانيك وإبداعك.

معذرةً إن قصّرت أيّها الشهيد، كلما أمسكت يراعي وشرعت بالكتابة خجلت وتعثّر يراعي بدموع حارقة مع أنني لم أوفّق لمعرفتك شخصياً.

لكن أتمنى أن أكون قد وفّيت القليل وشاركت بتخليد أثرك، يا من آثرت رقصة الوطن حرّاً على رقصة عروس تُزفّ إليك، يا من خلّدت بدمك كل ذرّة من تراب الوطن وجعلتها ترقص جذلى، فالكلمات عقيمة أمام تضحيتك بشبابك.

لقد رأيتك في عيون والديك وإخوتك الذين حضروا بإيمانهم وثباتهم صورة لك في قلبي ورسموها في مخيّلتي.

فاطمة

الفصل الأول

أ

ملوك الأرض أصحاب الرعايا عبدنا نحن خلاق البرايا
إذا افتخروا بديباج وخزٍّ فخرنا بالمرقّع والعبايا
وإذا ركبوا خيولاً سابقات مشينا في فلاتهم حفايا
رضينا القوت من خبز شعير إذا أكلوا الحلاوة والقلايا
وإن نزلوا قصوراً عاليات نزلنا في المساجد والزوايا
غداً تتبيّن السادات منّا وتبصر من تكون له العطايا

ب

- بغير شمس وجنتك، لم يبق ليومي نور
- ولم يبق لي من العمر إلا الليل الديجور
- وفي يوم وداعك، لكثرة ما بكيت وانتحبت
- وليبعد الله البكاء عن طلعتك - لم يبق لعيني نور
- وكان خيالك يغيب عن ناظري ويقول:
«أسفا ... لهذا الركن الأعزل المهجور»
- وكان وصالك يبعد الأجل عن رأسي
فالآن وقد هجرتني، لم يبتعد عني الأجل المقدور...!!

أ- حافظ الشيرازي، الديوان، مخطوط رقم ٢١ - ٢٢، ص ٢٥، مهرانديش للنشر، طهران، ط١، ١٩٩٩.
ب- م. ن، مخطوط رقم ٢٧، ص ٣٢.

- وقد قربت اللحظة التي يقول لك فيها الرقيب
إن هذا المتعب المسكين قد ابتعد عن وجهك وطوته القبور!!
- والصبر دواء لهجرك وفراقك ولكن
كيف يمكن الصبر، ولم يبق مني المقدور؟!
- ولو جرى ماء عيني يوم هجرك، ونضب
فمرني حتى أهرق دم الكبد فلم يبق لي عذر في التأخير.

■ ج ■

طيور النورس أصناف وصنفي غير الأصناف
رأيته ذات مرة فأخذتني الغيرة والحسرة
أعجبني من بعيد شامخ الرأس كالحديد(*)

تتثاءب لتنهض مستندة بيسراها على الركن الشرقي لمقام إبنة محراب الشهادة، السيدة خولة عليها السلام، فتكون أول من يلامس نور الشمس يمناها وآخر من تغمض يسراها على أشعة تتكسّر على أعمدة قلعتها الست الصامدة.

السلام عليك يا رسول الله، سموت نحو العلى فارتفعت عن قريش إلى حراء وكان الوحي.

تعالوا على جراح الإهمال والفقر والحرمان فأرادوه ثغراً من ثغور الجهاد وكانت المقاومة الإسلامية.

أول شهاب انطلق من حوزة الإمام المنتظر عجل الله فرجه إستقرّ في أعلى تلّة في بعلبك.

إنّه مقرّ ثكنة الشيخ عبد الله

(*) الشهيد علي نجيب مدلج. خواطر خاصة، ٢٩ كانون الثاني، ١٩٩٥.

إستقرّ الطقس بعد ليلة عاصفة إفتتحت بثلوجها شتاء بعلبك القاسي.

مزّق الفجر حجب الظلام فتلألأت نجمة تتهادى فتلمس قمة السلسلة الشرقية وتسمو مبتسمة لعبادٍ لبّوا نداء مؤذّن أعلن فجر يوم جديد.

ختم مؤذن مسجد الإمام علي عليه السلام الأذان، يحثّ فيها الناس على الصلاة

عجّلوا بالصلاة قبل الفوت

عجّلوا بالتوبة قبل الموت

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين والحمد لله ربّ العالمين.

عبارة كان قد درج على قراءتها المؤذن منذ الإنطلاقة الأولى.

السلام عليك يا رسول الله حين قلت: «إن سين بلال عند الله شيناً».

لم يمنع صقيع كانون أفراد التعبئة من النفور من عزمهم إلى المصلّى.

«يا الله، ساووا صفوفكم يرحمكم الله»

تقدّم إمام المصلى الشبان ليقيم الصلاة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انتهت الصلاة، رفع المصلّون سواعدهم المفتولة السمراء، تكاتفوا

علت الأصوات: لا إله إلا الله

إلها واحدا ونحن له مسلمون

لا إله إلا الله، ولا نعبد الا إيّاه مخلصين له الدين ولو كره المشركون.

لا إله إلا الله، ربّنا، وربُّ آبائِنا، الأولين لا إله إلا الله، وحده، وحده، وحده

أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد

يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

اللهمّ صلِّ على محمد وآل محمد.

«تقبّل الله أعمالكم». انصرف المصلّون إلى عزمهم.

أبو علي لم يتحرّك، نظر إليه حسين سائلا : ألا تريد العودة إلى الغرفة؟

- لا يا حسين.

- إسمع مني يا عم، المصلى بارد، وهناك متّسع من الوقت لتوزيع المهام.

- لا يا ولدي، إذهب أنت.

- كما تشاء يا عم. توجّه نحو الغرفة.

إيه يا ربّ. تنهّد أبو علي رافعا يديه:

«يا عون من لا عون له

يا عماد من لا عماد له

يا رجاء من لا رجاء له

أعنّي يا رجائي، يا أرحم الراحمين».

مسح أبو علي وجهه، قبض على لحيته، يا إلهي ما الأمر!؟

ما هذا الشعور!؟

نظر حوله لم يبق أحد. لا أريد العودة إلى الغرفة. تناول كتاب الأدعية وتوجّه إلى الله قائلاً، ما لي إلاّك ملجأ يا أمير المؤمنين عليه السلام ثم بعد ذلك توجه الى الله «اللهم إني أسألك الأمان يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأسألك الأمان يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً...

مولاي يا مولاي، إرحمني برحمتك وارضى عني بجودك وكرمك وفضلك يا ذا الجود والإحسان والطول والإمتنان برحمتك يا أرحم الراحمين».

أنهى أبو علي قراءة الدعاء، التفت جانبا فوجىء بحسين واقفا ينتظره.

- تقبّل الله طاعتك يا عم.

- منّا ومنك يا ولدي، لماذا عدت من الغرفة؟

- إنتبهت من غفوة أخذتني فلم أجدك،عدت أتفقّدك، فأشعة الشمس لامست نوافذ الغرفة.

يا ربّ، وقف أبو علي. تقدّم وحسين إلى النافذة مسح حسين رذاذ الماء عن زجاجها فصرخ الله أكبر.

حضن حسين أبا علي، قبّله أنظر يا عم. نظرا من النافذة، منظر يمجّد الخالق.

الحمد لله يا حسين إنّ خيرات هذا العام كثيرة.

سطعت أشعة الشمس ذهبية على عروس ترفل بثوب زفافها، تبدي خفرها إنحناءات أشجار الصنوبر والسرو المحمّلة بالثلوج

حول مرجة راس العين.

حمدل أبو علي وشكر الله لأن الثلوج تساقطت بعد إلتحاقه بعمله، فالله أعلم كيف ستصبح حال الطرق إذا استمرّت العاصفة.

- والآن ألا تريد العودة إلى الغرفة؟ سأله حسين.

إجتاز الممرّ نحو الغرف، أبو علي لا يكسر صمته إلا بقول «لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم». فيما حسين يكرّر سؤاله، «ما بك يا عم؟» وصلا.

- صبّحكم الله بالخير يا أخوة.

- أسعد الله صباحك يا أبا علي.

توجّه أبو علي مباشرة نحو حقيبته، أخرج مذياعا صغيرا ليستمع نشرة الأخبار الصباحية.

بدأ المذيع

«في هذا الصباح الشتوي البارد وعبر أثير إذاعة النور نحييكم ونقدّم لكم نشرة الأخبار الصباحية المفصّلة، نبدأها بالعناوين:

نفّذ الطيران الحربي الإسرائيلي طلعات فوق الأراضي اللبنانية من الجنوب وصولاً حتى البقاع الأوسط، أغار خلالها على منطقة الديدبا، ونحن بانتظار وصول بيان غرفة عمليات المقاومة. إبقوا معنا لنوافيكم بآخر الأنباء.

اللهم اجعله خيراً.

بدأ أبو علي والشبان مناقشة الوضع، قطع الحديث طرقٌ على الباب:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضّل يا أخ.

إنه رسول قائد الموقع يحمل قائمة توزيع المهام.
فوجىء أبو علي بتكليفه.
نظر الرسول بعينين غلب سوادهما بياضهما، سأله مستفسراً.
- «هل أنت متأكد من مهمّتي؟»
- «نعم». أجابه.
- لماذا فأنا التحقت بالعمل أمس. لكن لا ضير.
استدار، وضع جهاز المذياع الذي كان يحمل في حقيبته وهو يتساءل:
لماذا؟! هل هو قرار فصل؟!
السائق ينتظر في الخارج يا أبا علي. قالها موفد القيادة وهو يترك الغرفة.
ودّع أبو علي الشبان، حمل حقيبته وخرج.
السائق منتظر، قبل أن يمدّ أبو علي يده ليفتح الباب، فتحه السائق.
السلام عليكم.
عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
أدار السائق محرّك السيارة وانطلق.
- أتى الثلج مبكرا هذا العام يا أبا علي.
- الله كريم يا ولدي.
بعد وصولهما مرجة رأس العين، سأل أبو علي: هل تريد أن تمرّ على مقرّ الحوزة كالعادة؟
- لا يا عم. ليس لدي أمر بذلك.
خابت آمالك يا نجيب، فلن تحظى برؤية علي. ناجى أبو علي

نفسه.

واصل السائق مسيره نحو حي الشراونة من ناحية حي الشيخ حبيب آل إبراهيم شمالي شرقي حوزة الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

كان أهل بعلبك آنذاك فرحين بالعاصفة الأولى، الأولاد خرجوا باكرا يلعبون بكرات الثلج ويهزجون، أما الكبار فيزيلون الثلوج عن أسطح منازلهم ومن أمام دكاكينهم.

لم تمض عشر دقائق حتى وصلا إلى حي الشراونة.

توقف السائق أمام منزل أبي علي.

- الحمد لله على سلامتك يا عم.

- آجرك الله يا أخ.

ترجّل أبو علي، حمل حقيبته، أوصى السائق «احترس بالقيادة يا أخي، إذهب بحمى الله».

وقف أبو علي أمام باب منزله وقبل أن يطرق الباب، حاول النظر من خلال النافذة. يا نجيب جفاف النافذة لا يوحي بوجود أحد في المنزل.

طرق الباب، لم يفتح أحد، فتح بمفتاحه نادى، لم يجبه أحد.

لم تعتد أم علي الخروج في هكذا طقس إلا لعيادة أهلها.

لم يكن منزل الحاج كامل بعيداً عن منزل صهره أبي علي.

وصل أبو علي إلى دار عمّه، طرق الباب.

الحاج كامل وزوجه الحاجة ورد كانا جالسين قرب المدفأة في الغرفة الشرقية.

من عساه الطارق في يوم كهذا؟! تساءلا.

يا رقية افتحي باب المطبخ يا ابنتي، أظنه أخاك «نعمة»، فالظل

كما أرى ظل رجل.

فتحت أم علي رقية الباب.

ـ السلام عليكم.

كانت المفاجأة كبيرة، صرخت: «لماذا رجعت الآن؟ هل هناك خطب ما؟».

نظر أبو علي في وجهها مستغرباً، مخفياً ما كان يجول بداخله، وقال: «ردي السلام يا أم علي، هل ستكملين التحقيق وأنا واقف في الصقيع؟».

انتبهت أم علي، أخذت بيده قائلة: «سامحني يا أبا علي، الله يخزي الشيطان، تفضّل».

تهادى صوت الحاجة ورد من الداخل، «من الطارق يا رقية؟ لماذا لم يدخل؟

ـ إنه أبو علي نجيب، ها هو آتٍ إليكم.

دخل أبو علي، ألقى عليهما السلام.

وعليكم السلام يا أبا علي. تفضّل.

أفسح الحاج كامل مكانا له خلف المدفأة، وأشار له إجلس هنا.

غمر أبو علي عمّه الحاج كامل، قبّله وسأله عن صحته فحمد الله وأثنى على نعمته عليه.

في تلك الأثناء دخلت أم علي ملهوفة صامتة، عيناها حائرتان مسمّرتان بأبي علي فقدومه أوقد ناراً غريبة بداخلها.

عافاك الله يا ابنتي.

أظن أن زوجك لم يفطر بعد، أحضري له طعاماً.

قال أبو علي: «لا يا حاجة لقد تناولت الفطور في المقرّ ولكنّي أريد

ان ارتاح قليلا قبل عودة الأولاد من المدرسة».

عند ذاك قالت الحاجة لإبنتها: «أتركي كل شيء يا رقية واذهبي مع زوجك إلى المنزل».

- لقد أنهيت كل الأعمال يا والدتي وطعام الغداء جاهز على الطباخ.

- ألبسك الله ثوب العافية يا ابنتي ونوّر دربك دنيا وآخرة.

تقدّمت ناولت أبا علي معطفه، واستدارت لترتدي معطفها، وهي تردد بعفوية «المكتوب بالسما ما بينمحا على الأرض، سلّمتك أموري يا ربّ».

ودّعا الحاج كامل والحاجة ورد وانطلقا نحو منزلهما.

أم علي تخطو أمام زوجها بخطوات متسارعة نحو المنزل.

- انتبهي لنفسك يا رقية، على مهلك. ناداها أبو علي.

- لا تهتم يا أبا علي، أريد أن أصل قبلك لأشعل المدفأة.

انعكس قلق أبي علي تباطؤاً على خطواته مع خلوّ الطريق من أيّ عوائق جليدية.

وصل بعد زوجه بدقائق قليلة، توقف أمام مدخل منزله تساءل، مجاهدة أم علي، كيف تمكّنت من إزالة الثلوج قبل ذهابها إلى منزل عمي؟ مسكينة.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. الحمد لله على سلامتك يا أبا علي.

ساعدته برفع معطفه عن كتفيه وقالت: «لقد أشعلت المدفأة في غرفة الجلوس، تفضّل وارتح قليلا قبل عودة الأولاد».

- اجرك الله يا ام علي. توجّه نحو الغرفة، افترش مفرشا قريبا من المدفأة، إتكأ على مسند وراءه، ألقى برأسه على الحائط شارداً.

«يا كاشف الضرّ... لا حول ولا قوة إلا بالله». ردّد أبو علي.

في تلك الأثناء دخلت أم علي وبيدها غطاءاً صوفياً ألقته عليه وهي تسأله، هل رأيت علي اليوم؟

- كلا لم أره.

- غريب أمره فهذه المرة عندما أراد أن يلتحق بعمله انتظرني حتى الواحدة ظهراً ليودّعني ويبشّرني أنه لن يتأخر هذه المرّة، ولكنني أتوقّع أن يمرّ بالحوزة ليحضر بعض الكتب، كما قال.

- سلّمه لي يا رب، طموحه يكبر عمره.

عادت أم علي إلى المطبخ.

إيه، الحمد لله، تنهّد ابو علي، نظر إلى ساعته، لا تنم يا نجيب قرُب موعد صلاة الظهر، ما هي إلا دقائق حتى بدأ مؤذن المسجد المجاور برفع الأذان.

الله أكبر .... حي على خير العمل..

خير العمل ولايتك يا أبا الحسن عليه السلام ، عقّب أبو علي عند سماعها.

نهض.

أنهى أبو علي صلاته، عقّب، جمع سجادة صلاته وتوجّه نحو المفرش حاملاً سبحته، تمدّد وما إن أحسّ بشيء من الدفء أخذته غفوة نبّهته منها قبلة على جبينه، بحركة عفوية ودون أن يفتح عينيه عانق من قبّله وهو يقول: «حبيبي يا علي».

تراجعت سليمى عن صدر والدها واتجهت نحو المطبخ.

عانقت والدتها، بكت.

أبعدت أم علي رأس سليمى عن صدرها، مسحت بحنان لؤلؤات انحدرت على خدّيها وقالت: ما بك يا عمري؟

قصّت عليها ما جرى وقالت: يا أمي أنا أحبّ أخي عليّاً كثيراً وأفرح لأنكم فخورون به، لكني ظننت أن والدي لا يحبني.

طيّبت أم علي خاطر ابنتها، أجلستها وتمتمت، «الله يعطيني خير والدك يا سليمى».

في تلك الأثناء تناهى إلى سمعها صوت أبي علي من الغرفة ينادي: يا أم علي هل عاد الأولاد من المدرسة؟

أجابته: نعم، وسليمى عادت من العمل.

دعيهم يدخلون.

عند ذاك توجّهت إلى سليمى قائلة: صدّقت؟! خذي إخوتك وادخلوا إليه.

ضحكت سليمى ضحكة ملؤها الفرح عندما سمعت والدها يناديها، «يا سليمى، تعالوا إليّ».

جلس أبو علي يتحدث مع أولاده، يسألهم عن أحوالهم ويخبرونه عن مدى فرحتهم بالزائر الأبيض.

الأولاد فرحون بعودة والدهم، يتبارون لإخباره بما فعلوه في المدرسة.

قبل أن تبدأ سليمى بسرد أخبار عن عملها، إنتفض أبو علي من جلسته، رفع الستارة عن نافذة الغرفة الشرقية، حدّق، قطّب حاجبيه قائلاً ما الخبر؟!

ترجّل من السيارة رفاق علي!! اين علي ليس بينهم!؟

الباب يُطرق وأبو علي لا يزال مسمّراً خلف النافذة، الأولاد ينظرون لا يفهمون ما يجري حولهم.

نادت أم علي من المطبخ، أرجوك يا أبا علي افتح الباب ريثما أصلح حجابي.

توجّه أبو علي نحو الباب بخطوات عاكست طبيعة الطرق عليه.

تقدّم، فتحه.

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضّلوا.

الشبان القادمون يعرفون أبا علي وهو يعرفهم جيداً.

سأل أحدهم: «ألم يصل أبو رضا بعد؟» (أبو رضا، الإسم العسكري للشهيد).

جاء صوت أم علي من الداخل يجيب عن السؤال بسؤال: تسألون عن علي!! ألم تنطلقوا إلى المقر سويّاً؟!

استدرك أحدهم، نعم. لكن في طريق العودة إنطلقت الحافلة التي تقلّنا قبل حافلته بوقت قصير، أظنه سيوافينا.

أم علي تحاور الشبان، أبو علي يلوج بنفسه ويتساءل:

ذهبوا سوية ....!

عادوا يسألون عنه....!

قال لن يتأخر....!

أين علي......!!؟

تفضّلوا أحبّائي، واشربوا الشاي مع أبي علي.

دخل الشبان إلى الغرفة تحلّقوا حوله يحدّثونه، أم علي عادت

من المطبخ تحمل صينية عليها أكواب الشاي بيد وباخرى إبريق الشاي، لم تكد تصب الكوب الأول، ما هذا؟! اللهم اجعله خيراً.

طرقات على الباب حسبتها وقعت على أعصابها، تجمّدت.

الإبريق بيدها والعينان مسمّرتان نحو الباب.

من عساه الطارق؟!

فتح أحد الشبان الباب، وفد شبان جديد على رأسه رجل دين.

- أهلاً وسهلاً، تفضلوا. رحّب أبو علي بالضيوف الجدد.

- أهلاً وسهلاً بكم يا أبا علي. ردّ فضيلة الشيخ.

جلسوا يتبادلون الأحاديث.

سأل أبو علي: «ما هي آخر أخبار المحاور؟ هل هناك من جديد؟».

ردّ الشيخ، أدعُ للشبان المقاومين بالنصر يا أبا علي فآخر الأخبار وردت عن وقوع غارات على تلال الديدبا ومنطقتها ليلاً.

الله ينصرهم ويردّهم سالمين. أردف أبو علي.

سؤال أثلج قلب فضيلة الشيخ، أشار له كيف ومن أين يبدأ.

عزيزي أبو علي، قال الله تعالى في كتابه العزيز، «بسم الله الرحمن الرحيم. ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

بهت أبو علي، حدّق في وجه الشيخ قائلاً: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون دائماً أبداً».

تمتم بصوت خافت، «لماذا اختار هذه الآية لبدء حديثه».

أم علي جالسة في المطبخ قرب الباب، تمسك ركبتيها بعشر

أصابعها، تجود بنفسها.

صمت مهيب لفّ الغرفة أنهضها من مكانها دون أن تشعر، فاجأت الحضور بوقوفها أمام الشيخ تسأله: «يا مولانا، أقسم عليك بالله العظيم أن تقول لي ما الأمر، أين حبيبي أبو رضا»؟ أين نورسكم؟ هل أصابه مكروه؟

وقف أبو علي نحّاها جانباً، لا تستعجلي الأمور، انتظري فضيلة الشيخ يكمل حديثه. واختنق بعبرته.

أنا أعلم ما يريد قوله يا أبا علي، أظنني قرأته بعينيه عندما ودّعني وقال: «لن أتأخر هذه المرة يا أمي، ادعي لي».

آهٍ يا أمي.

نظر أبو علي إلى الشيخ. اعذرنا يا مولانا، تفضّل أكمل حديثك.

يا الله. الأمر يا أبا علي هو أن مجموعة من المقاومين من بينهم الأخ علي ولدكم كانوا بمهمة استطلاع، في منطقة الديدبا وقضت خطة سيرهم أن يرابطوا ليلاً في كهف إصطنعه المجاهدون ليتقدّموا عند الصباح نحو الهدف.

كان عديدهم أربعة. فالذي حصل أنه قبل الفجر قام الطيران المعادي الإسرائيلي بغارات على المنطقة وكانت إصابة الموقع مباشرة، الآن لم يُبلّغ عن ناجٍ من الشبان.

صمت حزين ساد الغرفة كسرته هذه المرة أم علي أيضاً صارخة بصوت خنقته الآهات.

يا علي......

أم علي عبّرت لكن أبا علي اختنق بعبرات صامتة أحرقت أحشاءه.

وقف الشيخ واصطحب ابا علي ليكمل حديثه معه خارج الغرفة، فوجئا بجمع من الجيران قادمين.

كان بمقدّمتهم الأستاذ نعمة خال الشهيد.

وصل، توقف أمام صهره، تكلمت العيون بثّت دموع أبي علي النبأ للخال الحنون، تعانقا.

أين أختي رقية؟ سأله.

توجّه الأستاذ ليواسي أخته، وهو يتمتم « لطالما نبّهته من هذا اليوم لكنه لم يسمع، كيف سأراك يا رقية؟».

أم علي تجود بنفسها، تزفّ العريس والجارات بدأن يتوافدن لمعرفة سبب الحشد عند أم علي.

توجّه فضيلة الشيخ بعد الإتفاق مع والد الشهيد على الترتيبات، إلى أخوة الشهيد. «اجتهدوا لترتيب عرس النورس «أبو رضا» البطل.

في تلك الأثناء شقّت الجموع المحتشدة أمام المنزل إمرأة طويلة حنا كتفيها فقد الأحبة فلذتيّ كبدها، ترتدي رداءً أسودَ طويلا وتلفّ رأسها بخمار أسود. تقدّمت مسرعة تمسك بطرف ردائها، تسأل الجيران ما بها ابنتي؟ ماذا حصل لها؟

النساء ينظرن إليها يكفكفن دموعهن ولم تجرؤ واحدة على قول شيء لها.

وقفت عند الباب نادت يا رقية أين أنت؟ تقدّمت أم علي رقية من والدتها ركعت بدأت بتقبيل يديها ورجليها، قالت: «اليوم أحسست بجرحك يا أمي، أحسست بقلبك كيف انفطر بفقد علي وحسن.

انحنت الحاجة ورد انهضت ابنتها عن الأرض، عانقتها، شمّتها، قبّلتها، اختلطت الدموع.

قبّلت أم علي رقية يدي والدتها، ضمّتها الحاجة ورد إلى صدرها مسحت دموعها وقالت: «لقد واسينا الزهراء، إبنك علي وأخويك صاروا ثلاثة يا رقية، بقي واحد. السلام عليك يا أم البنين».

في تلك الأثناء تناهى إلى سمع النسوة صوت من داخل الغرفة، قالت أم علي لإبنتها سليمى: «إذهبي وقولي للشبان بأن لا يتركوا خالك وحده».

عادت تقول: «ليس خالي الذي في الغرفة، إنه أحد رفاقه».

شاب في عينيه إصرار علي وعزمه استند إلى باب الغرفة ركّز نظره على صورة للشهيد بلباس القائد الكشفي علّقتها والدته.

. «منذ تلك الترقية يا علي أدركت بأنك سموت عني، لكني لم أعهدك تؤثر نفسك بشيء.

هل كنت تعلم يا علي؟ لماذا لم تخبرني؟ لم تكن تمازحني حين قلت لي ستكون أول من يرثيني.

هل نعيت إليك نفسك منذ تلك الليلة»؟.

تقدّم أمسك الصورة. وقف بين رفاقه، ضمّ الصورة إلى صدره وقال، سأنفذ الوصية يا حبيبي، ولكن بحق حفيد الزهراء إلا ما أخذتني إلى جوارك.

«يا علي مدلج جيت أعمل واجبات
وقدّم تعازي للشباب والبنات
وواسي النجيب، وقبّل عيونو الدامعات

هجرة النورس

سمعت أهلك عم يقولوا وعن ثبات
ما في تعازي راح عهد الباكيات
رجعت تذكرت شو وصّى الشهيد
إن كان هيك الموت ما أحلى الممات».(*)
سامحني يا «أبو رضا»، أخفقت يا نورس المقاومة.
هل نفّذت الوصية يا شهيد؟

(*) أبيات رثاه بها أحد إخوته المجاهدين خلال سهرة مرابطة في أحد ثغور المقاومة الإسلامية قبل استشهاده.

الفصل الثاني

ـ أ ـ

ذلك الحبيب الذي كان منزلنا بوجوده مهبطاً للملائكة
كان من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، بريئاً من العيوب كالملائكة
وكان ذلك القمر موضعاً لرجائي ومعقداً لآمالي
لأنه كان يمتاز بحسن الأدب، كما كان مبرزاً في أساليب «أصحاب الأدب»!

ولكن نجمي ..... أسرع بإخراجه من حوزة يدي
فماذا أفعل.... وقد كان السعد في دورة هذا القمر....!!
فالتمس لي عذراً..... يا قلبي.....! فإنما أنت درويش فقير
وأما هو فملك متوّج الرأس في مملكة الحسن.....!![٥].

ـ ب ـ

طير النورس
شكله فيه عبر....
لمن شاء أن يعتبر....
فيه معنى للحياة....

(٥) م.س، غزل، رقم ٢٣٣، ص ١٧٤، ١٧٧.

هجرة النورس

يحلق فوق البحار....
له عينان فيهما بريق....
تلوح للحياة من بعيد....
تنظر في وجهه كأنه ملاك....
وكأنه يخاطبك ما أحلاك....
شعور متبادل في الأفلاك....
طير النورس ما أحلاك....[*]
يا معلّقاً في الهوى أحلامك باتت في الفنى
يا قلباً أحبّ ملاكاً هل لك شيء في الأفلاك[*]

مرّت الأيام والسنون ثقيلة على أبي علي وزوجه، وكلما رزقوا بمولود جديد عادوا واسترجعوا ذكرى ولادة الصبي الأول «علي»، طفولته وشبابه ثم ارتقاءه إلى الملكوت الأعلى متوّجاً بشرف الشهادة.

جلست سليمى بجانب والدتها بعد خروج إخوتها إلى المدرسة، نظرت إليها أم علي، سألتها: «ألا تريدين أن تذهبي إلى عملك؟».

اليوم لا. أجابت سليمى.

لقد اتصلت معهم وطلبت إجازةً اليوم.

لماذا يا سليمى؟

لن أتركك اليوم، فقد رأيتك متعبة عندما قمت لأداء صلاة الفجر.

الله يرضى عليك يا سليمى.

تمدّدي هنا ريثما أكمل أعمال المنزل وأجلس بجانبك.

(*) الشهيد علي مدلج، خواطر، ٢٨ كانون الثاني ١٩٩٥ ، بعلبك.
(*) الشهيد علي مدلج، خواطر، ١ شباط ١٩٩٥، بعلبك.

خرجت وما هي إلا دقائق معدودة حتى سمعت والدتها تناديها، «سليمى يا سليمى، تعالي إليّ».

نعم يا أمي.

هل انتهيت؟

نعم، ماذا تريدين؟

دخلت سليمى إلى غرفة والدتها فوجدتها تتألم.

سألتها ملهوفة: ما بك يا أمي؟

أشعر بألم لا يطاق يا سليمى، إذهبي ونادي جدتك وخالتك زينب.

حاضر يا أمي.

ذهبت سليمى تهرول نحو دار جدّها، نادتهما وعادت مسرعة إلى والدتها.

انتظرت سليمى جدتها وخالتها خلف النافذة، تارة تكلّم أمها تهدّئها وطوراً تنظر إلى الخارج.

«الحمد لله»، تنهّدت سليمى.

ها هو خالي نعمة أحضر السيارة ومعه جدتي وخالتي زينب، لم تكد تتوجّه نحو والدتها حتى أصبحت الحاجة ورد وابنتها زينب داخل الغرفة.

صباح الخير يا رقية.

أهلاً وسهلاً يا والدتي.

منذ متى تتألمين يا أمي؟

منذ فجر هذا اليوم، لكنني كابرت على نفسي.

سألت زينب أختها، هل جهّزت أغراضك؟

نعم، هاتِ الحقيبة يا سليمى.

لم تكن المسافة بعيدة، فالمستشفى تقع على الشارع المقابل لمنزل أبي علي.

قضت سليمى ساعات النهار، تنتظر مع إخوتها وجدّها أخبارا عن الوالدة على أحرّ من الجمر.

الحاج كامل في الداخل يقيم صلاة المغرب، دخلت زهراء مسرعة إليه تناديه، «يا جدّي رجعت الماما، قوم يا جدّي».

خرج الأولاد يستقبلون أمهم، تقدّمت منهم الحاجة ورد تحضن الوليد إلى صدرها وتقول: «افرحوا يا جدّتي، رجع علي».

اختلفت تقاسيم الوجوه، بين من فهم قول الجدة وبين من ضحك دونما فهم لقصدها.

دخلت الحاجة ورد قدّمت الوليد لأبي علي الذي كان جالساً مع عمّه.

رفع أبو علي الوليد بين يديه تأمّله، وصوت الحاجة ورد ما زال يترجّع في مسامعه «رجع علي يا جدتي».

دمعت عيناه، التفت إلى عمّه قدّمه إليه قائلاً، «لن أتقدّم عليك يا عمّي، تفضّل بالمستحبات كعادتك».

حضن الحاج كامل حفيده، رفعه بين يديه ليرفع الأذان ويقيم في أذنيه، وفي المرتين كان يغصّ عندما يصل لشهادة: «إنّ علياً وليّ الله».

تعود به الذاكرة سنوات، إلى ليلة ولادة علي، عندما حمله لنفس الغرض، وليد الساعات، البريء كان يتلوّى محرّكاً شفتيه، يحاول فتح عينيه.

رحمة الله عليك يا علي.

كنت الوليد الذي اختار إسمه منذ سماعه هذه الشهادة.

استدار وكلّم صهره يا نجيب، يا أبا علي، الله يجعلهم خلفة صالحة لك في الدنيا والآخرة.

يا عمّي، حملت أولادك كلهم: سليمى، علي، حسّان، بسّام، ثم محمد وحسين، زينب وزهراء واليوم، وقبل أن يكمل تدخّل أبو علي وقال: «اليوم حسن يا عمّي، إن شاء الله سميته حسناً».

فعلت خيراً يا عمّي.

واليوم حسن، لكنّهم جميعا ليسوا كعلي.

فأنا لا أنسى شعوري عندما حملته، فلم أشعر وقتها أنني أحمل مخلوقاً آدمياً بين يديّ، وعندما رفعته لأرفع الأذان في أذنه، شعرت بأنه ارتفع نحو السماء وخلت يداي فأدركت بأنه سيكون له شأن عند الله.

مخلوق صغير الحجم خفيف الوزن أبيض اللون، فرشت له السماء فراشاً أبيض مهداً له، فعشق ذلك البياض وترجمه صفاءً ونقاءً في نفسه وروحه.

إزدان حي الشراونة وقتها بمولوده البشرى، ونطقت شفاه البيت المعمور بطهر الإيمان، وزيّنت البسمة المرسومة بصبغة الخلود شفتيه الذابلتين.

عادت الحاجة ورد وأخذت الوليد إلى فراشه.

رقد الجميع، هدأت الأصوات، أكمل الحاج كامل وصهره استرجاع ذكرى علي.

استرجع أبو علي سائلاً عمّه، «هل تذكر القميص الأبيض يا

عمّي؟» وارسل دمعة.

كيف لي أن أنساه؟!

عندما كان صغيراً وعند عودته من المدرسة كان يحمل لباسه المدرسي بيده وحقيبته الصغيرة بيد ويركض متقدّما إخوته حفيفاً، تحسب أن قدميه لا تلمسان الأرض.

طوت الأيام وتكرر المشهد نفسه، لكن الوجهة تغيرت، أصبحت من المنزل صوب الشارع العام.

ذات يوم، وقبل استشهاده بثلاثة أيام بالتحديد، كنا أنا والحاجة ورد جالسين مع نعمة صباحاً على الشرفة أمام المنزل، أمسكتني الحاجة بكتفي وقالت: «أنظر بالله عليك هل رأيت أجمل من هذا الطائر الأبيض؟».

فبعفوية رفعت نظري نحو السماء لأرى الطائر الذي قصدت. فقالت لي: «أنظر هناك». ووجّهتني صوب منزلكم، فإذا بعليٍّ قادم يحمل على كتفه حقيبته العسكرية، يرتدي قميصاً أبيض مع بنطاله العسكري وينتعل حذاءً أبيض خفيفاً لا تشعر بوقع خطواته على الأرض.

عندذاك نظر نعمة إلى والدته مبتسما إبتسامة الساخر وقال: «وهل أنت مسرورة بخطاه؟!».

مسرورة! أكيد، الله يفرّح قلب أمه ويجبر خاطرها به.

حدّق نعمة بوجه أمه غير آبه لما سمع وقال: «إذا سار على خطى ولديك حسن وعلي ستفرح أمه كثيراً».

استهدِ بالله يا نعمة، الله يحفظه ويرفع شأنه كما الصالحين والأولياء.

قطعت النقاش بينهما وقلت، لقد بردت قهوتكما إشرباها.

بينما كنّا نتناقش فوجئنا به يضمنا إلى صدره ويقول: «صبّحكم الله بخير يا أحبائي».

صبّحك الله يا حبيبي، أجبناه.

رأيناك من بعيد، ولكنك فاجأتنا بوصولك.

أردت المفاجأة قصداً.

عندها كسر نعمة صمته، وبلهجة لوم وتأنيب قال: «متى ستهتدي يا علي؟ إعقل وانتبه لدراستك، فلقد حمّلت نفسك حملاً ثقيلاً أكبر منك، إنتبه لدراستك وحوزتك، واترك هذه الطلعات، ألا تريد أن تفرّح قلب أمك؟

نظر علي إلى خاله نظرة شفوق على طريقة تفكيره، ضحك ضحكة عريضة وقال: «عرائسنا من حور الجنة يا خال».

«ستريك الأيام يا خالي»، قالها ودّعنا وانطلق.

هجرة النورس

الفصل الثالث

أسمر اللون، معه حلاوة الكون
له عين مخمورة، وشفة ضاحكة، وقلب طروب
وأصحاب الأفواه العذبة، جميعهم ملوك يتحكّمون
ولكنه وحده «سليمان الزمان» الذي معه الخاتم
ووجهه جميل، وعلمه مصفى، وهو كامل الفضل
فلا جرم إذا شملته همّته أطهار العالمين
وخاله المسكين كالقمحة على خده الوردي
وهو يعرف سرّ الحبة التي ضللت آدم
فلنا الله أيّها الرفاق إذا عزم الحبيب على السفر(*).
دعني بإرادتي ألزم دار الحبيب وعتبته
فكل ما يصيبني هو وحي لإرادته
ولا نظير لحبيبي بين الشموس والأقمار
ولو نصبت المرايا في مقابل وجنته....!!
وحبّاً فيه.... سأذهب إليه راقصاً كما تفعل «الذرة»
حتى تصل إلى عين الشمس الشرقة....!!
والأحرار لا يشعرون بما يقاسيه أسرى الهموم من عناء

(*) م.س.ن: غزل، ١٨، ص١٨.

فالمدد المدد.... أيّها الزهّاد.... حتى أذهب إلى الحبيب في يسر ورخاء....!!

وإذا لم أستطع الخروج كـ«حافظ» من هذه الصحراء فسارافق كوكبة الفرسان التي تقوم على خدمة «آصف هذا الزمان»(*).

ثلاث سنين

ثلاث سنين وأهيّأ نفسي لأصطاد الطيور، وبعد ذلك وقع نظري على طير اسمه «النورس» فأخذت بندقيتي وأطلقت باتجاهه النيران، فوقع بين ذراعي دون أن يتألم، عجبت لهذه الرؤية. طير مصاب دون أنين أخذته داويته فعوفي من جديد وبقيَتْ فيه الحياة.

بدأت أنظر إليه نظرة حنين، أحببته ماذا أقول لقلبي إذا سألني؟ أتحبّ طيراً؟

أقول له أحبه لأن فيه إسم الحبيب(*).

صافحت أشعة شمس بعلبك نوافذ منزل أبي علي في حي الشراونة.

أم علي وأبو علي جالسان يتناولان قهوة الصباح، وضعت أم علي فنجانها وقالت: «أدامها الله نعمة علينا يا أبا علي، نسأل الله التيسير فلدينا أمور كثيرة».

جمعت فناجين القهوة عن الطاولة، وهمّت بالقيام.

شكرها أبو علي وتمنّى لها دوام الصحة والعافية.

سأدخل أوقظ الأولاد ليفطروا ويجهزوا أنفسهم، فوجئت بعلي عند باب الغرفة يحييها.

(*) م.س.ن، غزل، ١٧، ص ١٧.

(*) الشهيد علي مدلج، خواطر، ٢ شباط ١٩٩٥.

صباح الخير يا أمي.

أسعد الله صباحك يا ولدي، حضنته وقبّلته.

أراك ارتديت باكراً.

لم أستطع الرقاد بعد الصلاة، أتصور الدقيقة التي سأعلم فيها نتيجتي.

هنا تدخّل الوالد قائلاً: «بطل مثلك يا علي لا يخاف».

الله يسمع منك يا والدي، حضن والده وقبّله.

عادت أم علي بعد أن همّت بالخروج، سألت علي: «لماذا ارتديت هذا القميص، أظن أن ياقته لا يتناسب مع زيّ المدرسة».

أجابها: لا نريد ارتداء زي المدرسة، فالإدارة ستلبسنا زيّاً خاصاً بالحفل، والقميص الأبيض جميل تحت ثوب التخرّج.

«الله ينجّحك ويفرحّني فيك يا ماما» قالتها وخرجت.

الساعة التاسعة والنصف يا أحبائي يجب أن ننطلق إلى المدرسة.

توجّهت العائلة سيراً على الأقدام نحو المدرسة التي لا تبعد كثيراً عن البيت.

سار الجميع نحو المدرسة، يتقدّمهم علي خفيف الحركة، «انظري يا رقية كأنه الوحيد الذي يتوق لمعرفة نتيجته، أنظري لقدميه كأنهما لا تلمسان الأرض».

بينما هما يتحدثان نظر علي إليهما وقال: «سأطرق الباب على جدّيَّ احييهما وأقول لهما أننا ذاهبون إلى المدرسة».

«الله يرضى عليك يا عيوني» أجابته الوالدة.

وصل، صادف جدتّه أمام المنزل تعتني بورود زرعتها.

راته يخطو نحوها، «الله، الله يحميك يا ستي، إلهي يطوّل عمرك».

صبّحها، عند ذاك وصل والداه وإخوته، قال أبو علي: «سنعود لزيارتكم بعد انتهاء الإحتفال في المدرسة».

خرجوا إلى الشارع الرئيسي وانطلقوا جنوباً نحو المدرسة، وصلوا.

توقف الجميع أمام مدخل المدرسة، الأبواب مفتوحة، الأساتذة يستقبلون ويرشدون الحضور إلى مكان الحفل.

لم يكن الإحتفال في قاعة الإحتفالات الداخلية فقد أُنشىء مسرحٌ على ملعب المدرسة الأخضر.

جلس والدا علي في صفٍّ متقدّم، أمام منصة الإحتفال حيث أقيمت في وسط الملعب من الناحية الشرقية، تأمل أبو علي برهة، تنهّد قال لأم علي انظري.

إلى أين؟

هناك.

إنها مقاعد أظنها خصصت للطلاب المتخرجين.

لا، لم أقصدها انظري هناك وأشار بيده نحو الشرق.

آه رأيتها.

هل رأيت إطلالتها على بعلبك وأشار بيده إلى ثكنة الشيخ عبد الله، انظري إلى مئذنة مسجد الإمام علي عليه السلام.

بدأ الإحتفال. الطلاب جالسون على المسرح خلف المنبر.

تليت آيات بينات من القرآن الكريم، كلمة الطلاب ونشاط لتلامذة الحضانة.

إعتلى المعرّف المنبر وقدم لفقرة توزيع الشهادات لتلاميذ

الصف الرابع متوسط، وطلب من المدير أن يتفضل لتوزيع الشهادات على الطلاب.

(الله يبيّض وجهك يا علي، ينيلك الدنيا والآخرة). بدأت أم علي بالدعاء لولدها.

كيف سنصمد يا أبا علي حتى يصل المقدم للحرف سألته أم علي.

أدعي الله أن يكون الترتيب باعتبار الحرف الأول من الإسم وليس من العائلة، حتى لا ننتظر طويلاً.

صعد الأستاذ أحمد إلى المنبر، فاجأ الحضور بما بدأ به.

خروجاً على العادة أيّها الأهل الأعزاء بعد أن أتقدّم منكم بأحرّ التهاني بنجاح أولادكم ونتمى لهم النجاح والتقدّم الدائم، وليجعلهم الله أنصارا للإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف فهم براعم تفتّحت في ربوع مبرته.

والآن أطلب من الطالب «علي نجيب مدلج» التقدّم نحو المنصة.

علت الصلوات على محمد وآله والتصفيق، أبو علي وزوجه ذهلا لماذا؟!

تقدّم علي من بين رفاقه بخطوات ثابتة نحو المدير، يرتدي لباس التخرّج الأسود تلوح من تحته ياقة القميص الأبيض. صافحه، وضع الأستاذ أحمد يده على كتف عليّ أداره نحو الجمهور وقال:

أظنكم تساءلتم لماذا «علي مدلج» أولاً وليس غيره؟

كلهم براعم تفتّحت يفوح عطرها، فهم أملكم وذخركم، أعزائي . لكننا أردنا التنويه بعلي فقد كان مثالاً للتلميذ المهذّب المجتهد، وكان له الجهد الكبير بمساعدة المربين في القسم الداخلي

في فترة بعد الظهر، فشكرا له. وتقديرا لجهوده المباركة فقد وضعنا مع شهادة كل طالب رسمتين عممها علي على رفاقه في القسم الداخلي يلخّص لهم فيها «صفات المؤمن» و«آفات القلب»، وليكن قدوة للطالب المجتهد الملتزم.

وقدّم إليه شهادته بعد أن صافحه وقبّله.

علا التصفيق والصلوات.

الأهالي كل ينظر إلى من يجلس بجانبه، من هم والدا علي ، ميّز أبو علي وأم علي شلال الدموع الذي رافق تصفيقهما.

نظرت أم علي إلى أبي علي ، أنظر يا نجيب الياقة البيضاء.

إنتهى الإحتفال، وزعت الحلوى على الحضور، إنطلق كل مع أولاده إلى حيث أتى.

إنقسمت عائلة أبي علي، توجّه أبوعلي نحو عمله وأم علي عادت مع الأولاد إلى المنزل.

كالعادة أول محطة قبل المنزل، منزل الجد الحاج كامل.

الحاجة ورد جهّزت الحلوى بانتظار عودة أحفادها الناجحين.

وصلوا وجدوا الباب مفتوحاً والحاجة بانتظارهم، استقبلتهم الجدة بالحلوى قائلة: أعلم يا أحبائي أنكم ناجحون، تفضلوا أهلاً وسهلاً يا أبطال.

طلب حسّان من والدته أن تخبر جدته بأخبار علي.

بينما أم علي تخبر والديها بنتائج الأولاد وشهادة علي المميزة، دخل أخوها الأستاذ نعمة.

كان ذلك اليوم آخر يوم يجتمع علي بالقائد في القسم الداخلي في المبرة، لأنه يجب عليه الإنتقال إلى مدرسة ثانوية.

عليّ التفكير بمخرج يرضي الله ولا يزعج والديّ.

لم يعد أبو علي تلك الليلة إلى منزله، كانت نوبته للمبيت في المقر.

إطمأنّ علي على أن الجميع قد رقدوا في أسرّتهم، ترك فراشه توجّه نحو الحمام اغتسل، صعد إلى السطح يناجي ربه. القمر كان بدرا، هدأت الأصوات، رقدت المخلوقات، صلّى، ناجى ربه، سأله المدد الروحي ونور البصيرة. وتوجّه إلى الله، «بسم الله الرحمن الرحيم سبحانك ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله، وما أوضح الحق عند من هديته سبيله. إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك، وقرّب علينا البعيد، وسهّل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفّيت لهم المشارب، وبلّغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك وروّيتهم من صافي شربك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصّلوا. فيا من هو على المُقبلين عليه مُقبل، وبالعطف عليهم عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف، ويجذبهم إلى بابه ودود عطوف، أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودّك قِسماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً، فقد انقطعت إليك همّتي، وانصرفت نحوك رغبتي فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي ولقاؤك قرة عيني، ووصلك مُنى نفسي، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي،

ورضاك بُغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك رَوحي وراحتي، وعندك دواء علّتي، وشفاء غلّتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلّتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، ووليّ عصمتي، ومغني فاقتي، ولا تقطعني عنك، ولا تبعدني منك يا نعيمي وجنتي، ويا دنياي وآخرتي، يا أرحم الراحمين».

انتهى، تسلّل التعب إلى جفنيه، جمع سجادة صلاته حمل سبحته ونزل ليخلد في فراشه ما تبقى من الليل.

إنه اليوم الأول من العطلة الصيفية.

صبّحك الله بخير

أراك قد استيقظت باكراً يا علي.

قصدت ذلك ياوالدتي.

لماذا يا عمري؟

أمي الحبيبة، لم أعتد أن أخفي عليك شيئاً كما لم تربيني على الكذب والمداهنة.

ماذا يا علي؟

الموضوع يا أمي أنني عندما كنت أذهب إلى المبرة أساعد المربين وأدرس مع رفاقي في القسم الداخلي، كنت قد انتسبت لجمعية كشافة الإمام المهدي عجل الله فرجه.

أعرف ذلك يا علي، قاطعته.

ليس هذا الموضوع يا أمي، الموضوع هو أنني علمت من القائد أن هناك دورة تعبئة وأرغب بالإنتساب إلى صفوف التعبئة العامة، ولكن الآن وبعد انتهاء العام الدراسي لم أعد أستطيع الإلتقاء

بالقائد، فلا بد لي من الذهاب إلى مقر التعبئة، فلا بد لي من إخبارك أنت ووالدي قبل القيام بأي شيء.

بهتت أم علي وقالت: «ألست صغيراً يا علي؟».

لا لست صغيراً يا أمي وضحك. أرجوك عندما يعود والدي أخبريه لأنني صممت على الذهاب ولن أذهب دون موافقتكما.

يا علي لم يتجاوز عمرك الأربعة عشر ربيعاً، أمامك طريق طويل، إلزم نشاطك الكشفي، أترك المقاومة لغيرك، يكفي والدك.

كل نفس بما كسبت رهينة يا والدتي، أرجوك لا ترفضي لي طلباً، لأنني أريد أن أفعل ذلك.

ودراستك يا علي؟

لا تقلقي فأريد الإلتحاق بالحوزة وسأنتسب لمدرسة عصرية قرب مسجد الإمام علي عليه السلام، فيكون عملي كله في نفس المنطقة، بإذنه تعالى سأرفع رأسك بين النساء.

إرحمني يا علي، لا تزال صغيراً، سنوات وأتركك تذهب إلى حيث تريد.

أرجوك يا أمي لا تمانعي، أقنعي والدي، فنحن لم نخلق لهذه الدنيا الفانية وكل مخلوق إلى زوال، إنه طريق يا والدتي لم يذق حلاوته إلا الأولياء والصدّيقون.

أرجوك ادعي لي فدعاء الأم لولدها مستجاب.

تمتمت تدعو له بصمت، فلم يعجبه ذلك تقدّم منها قبّل يديها، أرجوك أسمعيني ماذا طلبت لي من الله.

في تلك اللحظة أحسّت بأنه أفلت من قبضتها، طلبت له من الله

طلبا خرج رغم إرادتها لم تفهم معناه حتى استشهد البطل الصغير.

«يا ماما الله يعطيك عزّ الدنيا والآخرة». وأرسلت دمعة مسحها علي، قبّل مقلتيها وقفز في الهواء فرحاً، مردداً: «الله أكبر».

الفصل الرابع

ما أسعد اليوم الذي أذهب فيه عن هذا المنزل الخرب المهدّم
فأطلب الراحة لروحي،وأشير في أثر الحبيب المدلل المنعم!!
وأنني أعلم أن الغريب لا يصل إلى غايته التي يريدها
ولكني مع ذلك ذاهب في طريقي، لعلي أحصل
على نفحة من أطراف ذؤابته المنفوشة....!!
وقد ضاق قلبي بالوحشة التي أحسها في «سجن الإسكندر»
ومن أجل ذلك.... سأعقد أحمالي وأذهب إلى «ملك سليمان»!!
وسأذهب كنسيم الصبا.... عليل الجسد الضعيف القلب
بسبب ذلك الحب الذي أحسه لشجرة السرو المزهوّة المختالة!!
وإذا لزم الأمر أن أذهب إليه راكباً رأسي كما يفعل القلم
فسأذهب إليه بقلب جريح وعين باكية....!!
وحبّاً فيه... سأذهب إليه راقصاً كما تفعل «الذرّة».
حتى تصل إلى عين الشمس المشرقة....!!
والأحرار لا يشعرون بما يقاسيه أسرى الهموم من عناء
فالمدد المدد.... أيّها الزهّاد..... حتى أذهب إلى الحبيب في
يسر ورخاء....!!(❖).

(❖) م.س.ن، غزل ٢٨٢، ص ٢٧٧.

يا نسيم السحر: اين ماوى الحبيب.... أين؟!
وأين منزل القمر الساحر الذي يقتل عشاقه.... أين؟!
والليل مظلم، والوادي أمامك آمن.....
فأين نار الطور، من موعد الرؤية واللقاء....أين؟!
وكل آت إلى هذه الدنيا فهو زائل وعليه طابع الخراب.....
فهي تسأل في الخرابات و(الحانات) أين المفيق الآمن.....أين؟!
وأهل للبشارة من يعرف أسرار الإشارة.....
لأن النكات اللطيفة كثيرة، ولكن أين محرم الأسرار المؤتمن عليها....أين
وكل شعرة من شعرات رأسي عليها الآلاف من الحقوق لك....
فأين نحن؟ وأين المليم اللاهي.... أين؟!
واعتزلنا القلب ولزم الأركان، فأين محراب الحبيب.....أين؟
العيش بغير الحبيب، لا يكون ميسراً، مهيناً، فأين الحبيب....أين؟!(*).

لقد انقضت ليلة الفراق وانتهى يوم البعاد والهجر
وبهذا ضربت الفأل، فمر كوكب السعد وتم الأمر....!!أما هذا الدلال الذي أبدته أيام الخريف
فقد انتهى وذهب إلى حاله بمقدم نسيم الربيع....!!
فالشكر لله.....! فإنه عندما ازدهت تيجان الورود
انتهت قوة ريح الشتاء وانكسرت حدة الأشواك....!!
فقل لصبح الأمل الذي أضحى محجوباً في أستار الغيب.!
إطلع علينا، فقد انتهى أمر هذا الليل البهيم....!!

(*) م.س، غزل ١٥، ص ١٤.

وانتهت حيرة الليالي الطويلة، وغموم القلوب الكسيرة
عندما ظللتنا ذؤابات الحبيب....!!
ولم أكن أثق حتى الآن في الأيام وعهدها
ولكن قصة الألم قد انتهت إلى وصل الحبيب....!![*].

لؤلؤة

أرى لؤلؤة امام عيني فلا أستطيع أن ألمسها،
حالت بيني وبينها حواجز كبيرة ومسافات شاسعة،
أرى لؤلؤة أمام عيني لا أستطيع أن أكلمها،
حالت بيني وبينها عوائق.
لؤلؤة تنظر إليها فتبعث فيك الحياة من جديد،
ولكن لا أستطيع أن ألمسها
أناشدكم يا من تسمعوني هل من وسيلة لترشدوني،
لؤلؤة قريبة مني فهل تنجدوني.
أريدها، أريد ما فيها من جمال لأضعها وساماً في عنقي
وقد عزمت على لمسها ولو كلفني ذلك حياتي[*].
غريب آتٍ في سفينة الأسفار باكٍ.... آتٍ
وفي عيونه شوق الدموع النازفة.
عجباً لهذا الغريب الآتي، مرّ زمن، ألم يكن يكفي ليلقي الرحل
في مراقد الحب المقدّس. وتمضي السنون....
غادر الزمان وسافر نحو البعيد ما لهذا الغريب المهاجر
ألم يكن يكفيه زمان قد عبر.....

(*) م.س، غزل ٢٢٢، ص ١٤٣.
(*) الشهيد علي مدلج، خواطر، ٢٧ أيار ١٩٩٥.

الكل يهاجر..... والكل راحلون على اكفّ القدر.....(*).

أظلمت الدنيا، أصبحت سجناً خرباً مهدماً طرد الراحة والأنس من روح علي. غربته في سجن الحياة موحشة مظلمة.

لم تكن تحلو له الخلوة إلا في المبرة، هناك على المرجة تحت السماء.

دخل علي على والدته عصر ذلك اليوم وعلى غير عادته، ذهلت لمرآه، سألته: «ما بك يا علي؟».

لا شيء يا أمي، أريد أن أستأذنك للذهاب إلى المبرة، أحتاج لخلوة صغيرة.

إجلس هنا، لن أدع أحدا يزعجك.

لا يا أمي، أشعر أنني بحاجة لأبتعد قليلاً.

كما تريد يا علي.

لا تشغلي بالك، لن أعود باكراً. ذهب بضع دقائق بعد وصوله ورفع المؤذن أذان المغرب.

الحمد لله انفرجت أساريره.

الليلة جمعة، المبرة خالية «والناطور» لزم منزله يصلي.

وقف علي وسط المرجة يؤدي صلاة العشاءين، عقّب، بدأ بقراءة دعاء كميل وتوسّل إلى الله: «بسم الله الرحمن الرحيم. يا من إذا سأله عبده أعطاه، وإذا أمّل ما عنده بلّغه مُناه، وإذا أقبل عليه قرّبه وأدناه، وإذا جاهره بالعصيان ستر على ذنبه وغطّاه، وإذا توكّل عليه أحسبه وكفاه، إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته، أيحسن أن أرجع عن بابك بالخيبة مصروفاً، ولست أعرف سواك مولىً

(*) الشهيد علي مدلج، خواطر، ٢٨ شباط ١٩٩٥.

بالإحسان موصوفاً، كيف أرجو غيرك؟! والخير كله بيدك، وكيف أؤمّل سواك؟! والخلق والأمر لك، أأقطع رجائي منك؟! وقد أوليتني ما لم أسأله من فضلك أم تفقرني إلى مثلي؟! .انا أعتصم بحبلك، يا من سعد برحمته القاصدون، ولم يشقَ بنقمته المستغفرون، كيف أنساك؟! ولم تزل ذاكري».

ختم علي مناجاته، توجّه إلى الشرق زار الإمام الحسين عليه السلام، وقبل أن يهمّ بالقيام أحسّ بوقع أقدام خلفه، إلتفت فإذا به ناطور المبرّة، «تقبّل الله أعمالك يا علي».

متّا ومنك يا أبا حسن.

لماذا تأخرت شغلتني عليك مع أنني حفظت عادتك.

عافاك الله يا عم.

تفضل نكمل بقية السهرة في غرفتي لأن الجميع قد انصرف.

شكراً يا أبا حسن، لا بد من العودة إلى المنزل فالوالدة بانتظاري.

ودّع علي الناطور، توجّه عائداً إلى المنزل، نسمات لطيفة تلفح وجهه الرطيب، القمر لا يزال بدراً يحرسه بعناية إلهية في ظلام الليل.

إلهي متى اللقاء وأين؟ متى التيسير وأين الملجأ الآمن أين؟

أين من أبوح له بسرّي أين؟

لم يشعر علي بقطع المسافة من المبرّة إلى المنزل، قضاها بمناجاة ربّه وطلب العون منه والمدد.

غزا صوت إخوته مسامعه من أول المتفرع، وصل.

صرخ الجميع عند رؤيته، «ماما، بابا، رجع علي».

السلام عليكم، مسّاكم الله بالخير يا أحبائي.

أهلاً وسهلاً. ردّ الجميع.

من بقي في المبرّة يا علي؟ سألته الوالدة.

لا أحد يا امي، كنت وحدي ولم أشعر بأن الوقت قد تأخر، لولا أنّ الناطور نبّهني.

الحمد لله على سلامتك.

تصبحون على ألف خير. وقفل متوجّهاً نحو الداخل.

نادته الوالدة، «إرجع يا علي، جاء أثناء غيابك شاب قال أنه قائد في كشافة المهدي زميل لك».

لم يقل ماذا يريد؟

لا لكن قال أنه سيرجع عند الصباح.

استأذنكم الآن، دخل لينام.

عند الصباح، أبو علي كعادته يهمّ بالتوجه نحو عمله، ناولته أم علي حقيبته، حملها، توجّه نحو الباب، همّ بالخروج وإذا بذراع تمتدّ معترضة طريقه، توقف إلى أين؟!

«كمين، إنتبه! إنتبه للكمائن المفاجئة!»

ربّي يحميك يا علي يا حنون. قالت أم علي التي كانت تشيّع زوجها إلى باب المنزل.

قبّل ولده، ودّعه وانطلق.

إنطلق أبو علي نحو الشارع العام، صادف في طريقه زميل ولده علي متوجّهاً صوب منزله، ألقى عليه تحية الصباح، سأله عن علي، فقال، «إنه في المنزل».

وصل وطرق الباب، فتح علي، «أهلاً وسهلاً يا مهدي، تفضّل».

هل سألت عني أمس؟

نعم، لقد أتيت لك بخبر السعد.

خبر السعد؟! قل ما هو.

تكلمت مع آمر الفصيل بشأنك فقال لي فليأت ونتدارس معه بعض الأمور قبل إنتهاء تشكيلات الدورة القادمة».

الحمد لله، ستنجلي، حيرة انتهت. قل لي هل سألك عن عمري؟

نعم سألني، فأخبرته أنك بلغت الأربعة عشر عاماً، وأنك بطل شجاع، وأكدّت له بأنه سيعجب بك.

آجرك الله يا مهدي وجعل أيامك كلها بشارات.

قام علي وأحضر العصير لتقديمه لزميله مهدي إحتفالاً بالبشرى.

دخل علي أخبر والدته بأنّه خارج مع زميله مهديّ.

ترك علي أمه في حيرة بعيدة عن كل ما يجري.

وصلاً، أدخله مهدي مباشرة إلى المسؤول الذي كان بانتظاره.

قدّمه مهدي إلى المسؤول بعد إلقاء السلام.

توصلوا إلى خطوة ملء الإستمارة. بدأ يسأله وعلي يجيب.

الإسم؟

الإسم: علي نجيب مدلج.

انتهى المسؤول من كتابة الإسم، رفع رأسه سائلاً، نجيب؟!

أعرف هذا الشخص، أظن أن والدك يعمل في الثكنة.

ردّ علي بالإيجاب.

أهلاً وسهلاً بكم يا أخ. ردّ المسؤول؟

والآن ننتقل إلى النقطة الثانية.

تاريخ ومحل الولادة؟ ١ ـ ١ ـ ١٩٧٩. عندها توقف المسؤول عن الكتابة، رفع رأسه سائلاً، يعني عمرك...؟

قبل أن يجيب، قال علي: «أربعة عشر عاماً، لكن أرجوك لا تمنعني لأجل ذلك، أرجوك لا تحكم عليّ حتى انتهاء الدورة، جرّبوني، أتوسّل إليك.

بعد انتهاء الدورة، قُبل، المقاوم الصغير الذي كان طليع الدورة، قضى معظم سنوات عمله في بعلبك، ناضل وعمل كثيراً ليحصل على أمر مهمة بالمرابطة في أحد الثغور المتقدّمة. فلم يسمح له بالوصول إلى الخطوط الأمامية والمحاور لصغر سنّه.

كانت أول مرابطة له وهو بعمر السادسة عشر ربيعاً على جبل صافي وبشهر رمضان المبارك، حيث قضى معظم ليالي المرابطة بالتهجّد والتوسّل إلى الله بطلب الشهادة والمغفرة، إلى أن كان يوم الوعد والميقات على تلال الديدبا في ٢ ـ ١١ ـ ١٩٩٩.

أنهى إمام المقر صلاة المغرب لليوم الأخير من الشهر العاشر من العام ١٩٩٩.

تناول إمام المقر في تلك الليلة حياة وجهاد الصحابي المجاهد «إبن الأرقم»(*) بحديث شيّق.

أنهى الإمام حديثه ختم الجلسة، عاد بعض الشبان إلى مراقدهم فيما بقي البعض الآخر في باحة المسجد، يتساءلون ما الغرض من تناوله هذا الصحابي الليلة.

بينما هم يتناولون أطراف الحديث، جاء رسول قائد الموقع ينادي الحاج ولاء وأبو الهدى وأخ ثالث، ويطلب منهم الحضور إلى غرفة القيادة.

(*) إبن الأرقم: صحابي كان يستطلع المكان في عهد الرسول.

وصلوا، كان الباب مفتوحاً فمذ راهم قائد الموقع ناداهم: تفضلوا.

السلام عليكم.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضلوا بالجلوس.

خير إن شاء الله يا أخ.

ليس هناك إلا الخير بإذنه تعالى.

جاءت اليوم المهام بتكليف الأخ الحاج ولاء والأخ أبو الهدى والأخ..... بالقيام بعملية استطلاع في منطقة البقاع الغربي وعلى تلال الديدبا بالذات.

وسيكون الإنطلاق فجر غد، وسلّم خطة المسير للقائد الشهيد الحاج ولاء.

إنفرجت أسارير الشبان، تعانقوا عناقاً حاراً.

عادوا إلى غرفتهم، جلسوا يتدارسون الخطة المرسومة، قضوا الليل يودّعون إخوتهم بالوصايا ويأمنونهم على أسرارهم وأماناتهم.

كان وجه الأخ.... الفرد الثالث في الفريق المكلف بالمهمة يعبق إحمراراً وهو يكابر على نفسه كي لا يشعر به أحد من إخوته، لكنه لم يستطع إخفاء ألمه.

سأله الحاج ولاء ما بك يا ....، هل أنت مريض؟

لا. أجابه. لكن أظنها نوبة كلى عابرة.

إذن لا يمكنك الذهاب معنا غداً.

أتمنى أن أتمكن من الذهاب.

إرتح يا ... تعلم أن الطريق وعرة وطويلة. قال الحاج ولاء.

علي صامت يستمع إلى الأحاديث، لم يكد ينهي حديثه حتى نهض علي من مكانه وقف أمام الحاج ولاء، قال: «أنا ذاهب بديلاً عنه».

نظر إليه الحاج ولاء نظرة إكبار وقال: « أنت سنتركك لمهمة أكبر تناسب عمرك». حضنه وضحك.

صمت علي واستدار بسرعة ليجلس قرب المدفأة، ناجى ربه، «يا ربّ ، لا تحرمني صحبتك، أذقني حلاوة جوارك».

دمعت مقلتاه، مسح دموعه مسلّماً أموره «يا ربّ لا كما نشاء كل شيء بيدك يا كريم، الحمد لله».

إنتبه الحاج ولاء لسكون علي، أحسّ أن المنع قد آلمه، أراد ترطيب الجو. توجّه لعلي سائلاً: «هل سمعت يا علي بشخص إسمه «حسيب» من قرية «اليمونة» غربي بعلبك؟

أجابه علي بصوت خنقته العبرة: «اليمونة ، أعرفها لكن «حسيب» لم أسمع به».

عند ذاك قال الحاج ولاء: سأخبركم قصة «حسيب»:

تقدّم جلس بجانب علي قرب المدفأة. «الطقس بارد أليس كذلك؟».

سأله وجلس.

اليمونة قرية جبلية نائية تكسوها الثلوج شتاء وتعزلها أياماً كثيرة عن غيرها من القرى، أما في فصل الصيف فالطقس فيها جميل جداً، لكنها بعيدة ومسالكها وعرة وجبلية.

كان «حسيب» هذا أصغر رجال الضيعة سناً وجسداً، لكنه أكبرهم عزماً وهمةً، فكلما ألمّت ملمّة بأهل الضيعة أو احتاج

احدهم اي شيء قال: «انا لها».

قبل أن يتحرك أحد من أهل الضيعة.

عند ذاك انفرجت أسارير علي ، تنهّد، لكنه لم ينطق حرفاً. الأخ.... لا زال يتألم صامتاً.

قطّب الشهيد ولاء حاجبيه كمن يمثّل القسوة على عليّ وقال بصوت جهوري: «ستكون أنت البديل ، ستخرج أنت معنا».

قطع علي حديث الحاج ولاء صارخاً «الله أكبر «قفز من مكانه قبّله وضحك، «الآن فهمت قصة حسيب».

نهض علي يجهز بدلته وأغراضه. ناداه الحاج ولاء ، علي.... إنتبه «إجعل حملك خفيفاً لأننا سنحمل معنا أشياء كثيرة والطريق صعبة، توقع أننا لا نريد أن نسمع كلمة «تعبت» أو «انتظروني».

أجابه علي: «إذا قلت لك ذلك أتركني مكاني ولا تسأل عني».

لم تمض دقائق حتى وقف علي أمام الحاج ولاء، أدى له التحية. قال: «أنا جاهز».

نظر الحاج ولاء إليه مستغرباً، سأله: «أين قميص البدلة؟ ألم تحضره معك من المنزل؟».

أحضرته معي لكنني أحب هذا القميص. أليس جميلاً، ومسح بيده على القميص الأبيض.

أجابه الحاج ولاء: جميل معك حقّ، لكن من الأجمل أن ترتدي قميص البدلة.

سأرتديه فوقه، كما تريد، أجابه علي.

تم استعداد الشبان، شحنت النفوس، تودّع الشبان.

وقف الثلاثة رددوا: السلام عليك يا أبا عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّابا﴾

صدق الله العليّ العظيم

اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.

إنطلقوا.

كان الإنطلاق فجراً من مدينة بعلبك بالسيارة إلى مدينة مشغرة، سحمر، يحمر، قليا الدلافة، ومن هناك بدأ المسير.

سار الشبان تسلّقوا طريقاً وعرة للوصول إلى كهف، إصطفاه المجاهدون كنقطة استطلاع لتأمين تنفيذ عمليات المقاومين.

كانت حصة علي هي حمل غالون الماء، كان يتقدّمهما. نظر الحاج ولاء إلى أبي الهدى قال: انظر كيف يتأبط الغالون ويصعد كالحمامة. أجابه أبو الهدى، أظنه ظمآن والحمل عليه ثقيل لذلك يستعجل.

ناداه الحاج ولاء: إنتبه يا علي، إنتبه إذا وقع الغالون ليس هناك ماء لنشرب.

نظر علي خلفه وقال: وصول غالون الماء أهم عندي من وصول الأسلحة.

وصلوا ، نظر الحاج ولاء إلى ساعة يده، قال: إنها الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

حطّوا رحالهم في الكهف وجلسوا يتسامرون، نهض علي، لم

يستطع الوقوف لان الكهف كان قليل الإرتفاع، توجّه نحو برميل كان الشبان يستعملونه كحائط دعم للكهف وجلس أمامه يتحسسه.

ناداه أبو الهدى، «أترك فضول الأطفال يا علي، إذا تحرك البرميل يهبط الكهف».

نظر الحاج ولاء إليه وضحك، «الله يحميه لا زال طفلاً».

بينما هما يتحدثان، علي غير الآبه بما سمعه تناول حجرا عن الأرض، جرّبه على البرميل، «الحمد لله، الحجر يخطّ كالطبشور» قال علي.

إستدار علي نحوهما وقال: «انظرا» وأشار إلى البرميل.

«إذا مرّت الأيام ولم تروني أنا الشهيد علي فاذكروني».

لم يترك فسحة على البرميل إلا وملأها بتلك العبارة.

بقي البرميل ، قبّلته الوالدة بعد التحرير، لكن العبارة عفا عليها الزمان ليحفرها علي في القلوب وعلى صفحات التاريخ.

نظر الحاج ولاء للشبان، وقال: حان وقت صلاة الفجر. كان علي أول من همّ للوضوء. لم يكد يمسك الغالون الذي أحضروه معهم حتى ناداه الحاج ولاء: «يا علي حملنا الماء للشرب، ليكن في حسابك أنه لا يوجد هنا أي قطرة من الماء، إذا نفذت الكمية التي أحضرناها، ولا نعلم كم سيدوم بقاؤنا هنا.

نظر إليه علي، ابتسم ابتسامة عريضة قائلاً: «حصتي أريد أن أتوضأ بها وإذا طلبت الماء لا تعطوني».

كما تريد أنت جنيت على نفسك، أجابه الحاج ولاء.

قضى الشبان بقية الليل بالتهجد وقراءة القرآن والأدعية،

«الساعة السابعة يا إخوة، أظن أن الشمس قد أشرقت». قال الحاج ولاء.

نظر أبو الهدى إلى إخوته قائلاً: «كانت الطريق صعبة».

«هنالك أصعب ياأخي». أجابه الحاج ولاء.

أعلم لكن هل نسيت مرورنا بأحراج جزين.

نظر علي إلى إخوته مبتسماً، قال لم أجد فيها أيّ صعوبة. لم تكن أصعب من الصعود إلى ثكنة الشيخ عبد الله سيراً.

عند ذاك نظر أبو الهدى إلى الحاج ولاء وضحك قائلاً: « بالله عليك أليس حسيب؟!».

الطريق ليست صعبة! عاد وسأله مستغرباً. الإعتراف صعب يا علي.

قال الحاج ولاء لعلي: «أبو رضا»، أربع ساعات وتكون قد تجاوزت الأربع وعشرين ساعة دون أن تشرب نقطة ماء، إسمع مني واشرب الباقي من حصتك».

أجابه أبو رضا أقسم لك بأنني لا أشعر بالظمأ.

قضيت الليل تقرأ ولا تشعر بالظمأ، أقنعني كيف!

أقسم لك. عاد وأقسم له.

بينما هما يناقشان أمر الظمأ، صرخ أبو الهدى»، إسمعا أظنه صوت طيران، صفّق علي صارخاً «الله أكبر إجوا».

وبدأ يردد، السلام عليك يا أبا عبد الله، أتوسّل بك إلى الله أن يرزقني الشهادة.

هدأت الأصوات ليعلو صوت الطيران هادراً في الأجواء.

الشبان في الكهف لا يدرون ماذا يجري فوق الأرض.

فجأة دوّت صرخة مزدوجة، «السلام عليك يا حسين»، وصرخة وحيدة «السلام عليك يا أبا الفضل العباس، يا شهيد العلقمي».

دقائق وأراد أبو الهدى أن يحرّك جفنيه، «يا إلهي ما هذا؟!».

تساءل، جفني ثقيل لماذا؟!

حاول رفع يده ليمسح التراب عن عينيه لم يستطع، دفنته الأتربة والأحجار.

بدأ يحرك رأسه علّه يحرّر عينيه من سجن التراب، نجح لكنه تمنى لو أصابه العمى ولم ير ما رآه.

جسده مدفون حتى رقبته بالتراب، أحس بنور الشمس من فجوة كبيرة في الكهف، «يا إلهي أين أصبحنا؟!».

أين هما هل تركاني؟

نادى ساعدني يا ولاء أين أنت؟ لم يجبه.

أبو رضا إمسح عيني، ساعدني لأسحب يدي. لم يجبه.

صرخ بصوت خافت كي لا يكشفهم العدو، لم يجبه أحد.

صرخ أعلى: علي، ولاء، علي، ولاء. لم يجبه أحد.

بقي ستة أيام يصرخ تارة علي وطوراً ولاء. لكن ليس هناك من يجيب يوم، يومان وانكشف التراب عنهما.

نظر، هذا وجه علي ....

هذه يد ولاء تمسك الخريطة ....

صرخ

علي

ولاء

قم يا ولاء إشرح لنا خطة السير، لم يجب.

قم يا علي لم السرعة؟! إنه خروجك الأول.
ما هكذا الإخوة. لماذا تركتماني.
لم تتركني يوماً يا ولاء.
سلام الله عليكما، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.
بقي ستة أيام بلياليها ينادي يا علي، يا ولاء.
ما من مجيب فهما قريبان بعيدان، ينتظرانه.
صرخ، نادى، ناجى، توسّل، بكى، ما من مجيب
ناجى ربه «إلهي بحق أحب الخلق إليك محمد وآله ... ما فرّجت عني».

ثقل جفنيه، جفّ حلقه إستسلم وسكن
إلهي أين أنا؟! تساءل مستغرباً لما رأى
فجلس على ربوة خضراء عالية ملأى بالورود
والرياحين، تحلّق شبان بعمر الورود حول
نبع في وسطها ينحدر إلى أسفلها نهر صافٍ
توقف أسفل الربوة، من هؤلاء؟!
أعرف معظمهم!
لماذا لم يدعوني لهذه الجلسة؟!
إنهم يعلمون إنني بشوق لرؤية السيد عباس
أظن أنها جلسة لتفصيل آخر.
لكن لماذا؟ استغرق في تساؤلاته يتحسّر
ألماً، فجأة حضر شابان وسيمان إلى المجلس
وقف الجميع لإستقبالهما، تقدم أحدهما
الآخر بحركة خفيفة سريعة تعلو وجهه

إبتسامة عريضة هادئة، يرتدي قميصاً أبيض
ويحمل بيمينه كتاباً أبيض رفعه سلّم على الحضور وبدأ:
«أنبئكم إخوتي
المقطوعة التي كتبها الشهيد
أريد أن أنزلها كما هي بخطه».
إنتهى، ختم، تقدم للسلام على السيد عباس
والشيخ راغب وباقي إخوته الحاضرين
هذا علي من لا يعرفه، لأقبّل يديه، هذا العالم
البطل الصغير. وهمّ بالتوجه نحوه.
يا رب! إنتبه! حاول سحب يده لم يقدر.
إنتبه من غفوة أخذته، نظر أمامه، هنيئاً لك يا علي صافحت رفاقك واسيت الرباب.
في تلك الأثناء إهتزّ التراب عند أقدام أبي الهدى، تساءل هل ما زال بهما رمق من الحياة؟!
إنهارت الحركة، بانت سواعد ارتعب عند رؤيتها.
هل هم اليهود؟! يا إلهي إنهم يحاولون سحب البرميل.
- الحمد لله على سلامتك يا أخ، من؟
أبو الهدى، أين علي، أين الحاج ولاء؟
دمعت عيناه، في تلك الأثناء صرخ أحد الشبان القادمين لا تسألوه، انظروا إلى ما أرى، وأشار بيده إلى ما ظهر من أجسادهما.
عند ذاك سألهم أبو الهدى، ما الوقت الآن؟
إنها الثامنة صباحاً من اليوم الثامن من تشرين الثاني للعام

الف وتسع مئة وتسعة وتسعين.

توجه أبو الهدى نحو الشهداء، قائلاً: «ستة أيام مرّت يا أحبائي! رحمة اللّه عليكما.

الفصل الخامس

نقشت في حدقة عيني صورة لخيالك

فما رأيت وما سمعت بمن يعدلك في صورتك وجمالك....!!

ولو أنني أضحيت في طلبك قريناً لريح الشمال

لما استطعت أن أصل إلى قرب قامتك التي تختال في اعتدال....!!

ويا نسيم الوصل...!! أحضر إلي نفحة من جادة الحبيب المليح

ولقد مرّ على رأسي .... كما يمرّ على البرعمة.... نسيم عبق جاءني من دياره.

فمزّقت الستر عن قلبي الجريح طمعاً في أريجه ووصاله....!!

وقسماً بتراب أقدامك وبنور عين «حافظ» المسكين

إنني .... بغير وجهك.... لم أر الضوء يلوح من سراج العيون....!![*].

على أمل رؤيتك أيها الحبيب....! أصبحت كالوردة في كل لحظة ووهلة.

أمزّق ردائي، وأفتق قميصي من جيبه إلى ذيله....!!

(*) م.س.ن، غزل ٢٥٥، ص ٢٥٧.

فيا أيّتها الشمعة المتّقدة....! إهرقي الدمع من عينك الدامية
فقد أصبحت حرقة قلبك ظاهرة للملأ.... وبادية.....!!
وحذرا أن تجعلني أخرج من صدري آهة تفتّت الأكباد(*).
إنني أحترق في فرقتك.... فحوّل وأقلّ من هذا الجفاء
وقد أصبح الهجر بلائي... يا ربّ... إدفع عني هذا البلاء.....!!
وهذا قمري يبدو مجلواً على متن جواد الفلك الأخضر
فقيّد أقدامه بمخلاته حتى يخضع ويلين له....!!
وانثر ذؤابتك... أيها الحبيب...!! برغم ما حولك من سنابل الطيب
ثم عطّر أرجاء البستان ببخورك الذي يشبه نسيم الصبا الرطيب!!

..... الشوق كل حب .....
... أتيت لألملم الضلوع المتكسرة ....
.... الحقد ومطر الضياع
أتيت لأضم جمار لترتسم
على ثغر الطفل الرضيع ملائكة الابتسام
أتيت لأهب للأمة السحابة تضفي عليهم من بين أزقة الضحى عبير الجهاد ولتمسي الرصاصة عنوان شهادة بخلود وبقاء.

في عتمة الليل، تصفحت كتاب الجهاد ..... الانتظار
لملمت من أكف النجوم فتات هوية للعبور من بين أحداق الفجر تزق ... شرائط وأصفاد.

... ها قد أتيتكم أيها الشهداء في عتمة الليل أفتش بين مجرات الكلام عن فوهة فجر يستلذ فيها البقاء.

(*) م.س.ن، غزل ٣٩٠، ص ٢٨٣.

أتيتكم لأقرأ أوراق وجدي والتضحيات، لا تعلم من منهل سيد الشهداء حلاوة العز ولذة الانتصار.

... أتيتكم لأرتوي من كؤوس الشهادة خمراً مقطراً من أكف أبي الفضل العباس.

... أتيتكم أشق بحور الليل وإن تقاذفتني الأمواج، فزعانف الوجد تولد لأعيد أمير الشهداء يصارع حيتان الكفر وأخطبوط الفساد.

... أتيت لأستجمع أشلاء أفئدة لأمهات الشهداء

ما أسعد هذا النسيم المعطر الذي يأسر القلوب....!

فقد بدأ ينتشر في هواك مع نسمات الفجر ويأخذ في الهبوب...!!

فيا أيّها الطائر السعيد اللقاء....! كن أنت دليلي في الطريق

فقد فاضت عيني بالدموع شوقاً إلى تراب أعتابك....!!

وانظر إلى الهلال في حافة الأفق البعيد

وتذكر شخصي النحيل الذي غرق في دم القلب من أجلك!!

ولقد علم قلبي على أعتابك.... طريق الحب والوداد

عندما مزّق نسيم الصبا في وقت السحر شعار السواد....!!

وعندما أذهب عن هذا العالم في يوم من الأيام شوقاً إلى رؤية طلعتك

فإن الورود الجميلة تنبت من تربتي في مكان الحشائش الذاوية...!!

وحذار أن تجعل قلبك الرقيق يشعر بالملل في البعد والغياب

فقد يشمل «حافظك» في هذه اللحظة وعزم على الرحيل واذهاب....!!

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ...﴾ آل عمران آية ١٤٠

مع استشهاد علي تغيّرت طريقة حياة أم علي، بعد أن كانت تذهب كل يوم تقريباً لزيارة والدتها ومواساتها بعد استشهاد أخويها «علي وحسن»، فلستة أشهر خلت الحاجة ورد والجارات يأتين بشكل مستمر لزيارة أم علي وتسليتها.

الزمان: ٢٥ أيار من العام ٢٠٠٠

المكان: غرفة الجلوس في منزل والد الشهيد علي مدلج في حيٍّ تحتضنه مدينة بعلبك، إنّه حيّ الشراونة.

مذيع الأخبار على تلفزيون المنار يقدّم مشاهد التحرير.

وأخيراً تحقق حلم ضحّى لأجله المقاومون ما يقارب العشرين سنة، تمّ دحر الصهيونية.

«اللهم صلِّ على محمد وآل محمد» صرخت النسوة.

طوى المجاهدون صفحة الإحتلال عن معظم الأراضي اللبنانية، وبقي الجزء الأخير.

الإحتلال ولّى مهزوماً لأول مرة في تاريخ العرب، لكن قافلة الشهداء لن تختتم حتى تسلّم الراية لصاحبها عجل الله فرجه.

إرتفع إلى الباري عزّ وجلّ شهيد التحرير الأول، البطل الشيخ أبو ذرٍ الذي أتى قريته حاملاً بشرى التحرير، استراح واطمأن عندما لامست أقدامه تراب قريته رشاف، هدأت أنفاسه وارتفع شهيداً إلى الملكوت الأعلى برصاصة صهيونية.

إلتفتت أم علي إلى جاراتها اللاتي كنّ في ضيافتها قائلة: «من كتب الله له الشهادة ما من قوة في الكون تحرمه ذلك الشرف».

هنيئاً له.

هنيئاً لك يا أم الشهيد البطل، نسأله تعالى أن يحشره مع محمد وآل محمد ﷺ.

أسأله تعالى أن يحفظ أولادكن من كل مكروه وأن يجعله لي شفيعاً يوم الحساب أنا العاصية المذنبة، ومسحت دمعتها التي لم تجعل أحد يراها فهي دائماً الصبورة القوية.

رحمة الله عليه سبق الشهيد أبو ذر بستة أشهر.

عندما رأيته أمس وأنا أتابع أخبار التحرير رأيت بوجهه نورا لم أره إلا بوجه علي يوم ودّعني.

فرح ونور إنقلبا حزناً وغمّاً يوم عاد إلى المنزل بعد انتهاء حرب عناقيد الغضب.

لا أنسى ذلك اليوم، ليته عاد ثانية. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

إنها المرة الأولى التي لم نفرح بها سوياً، رجع كعادته إلى المنزل، كان بارداً عندما قلت له الحمد لله على سلامتك يا عمري. ذهلت لمَ هذا البرود: سألته هل أنت مريض؟

لا يا أمي.

إذن ما بك؟

لا شيء، لا تشغلي بالك.

طلبت منه أن يعطيني ثيابه كي أغسلها، فقال «لا تزعجي نفسك فما زالت كما رتّبتها، عدا المنشفة.

حتى القميص الأبيض.

حتى الأبيض.

لماذا؟ سألته.

أجابني: «لأن المرابطة كانت في المقرّ هنا، فلم يخرج أبداً».

الحمد لله يا عيني.

الحمد لله كل ساعة. لكن يا أمي إنتهت الحرب ولم أستشهد!

أطرق وبكى. تقدّمت منه مسحت دمعته وقلت له، يا أمي لا تأسف لم يكتب الله لك الشهادة، إفرح يا أمي بالنصر الذي حقّقه الأبطال، هكذا تكون الحروب: شهداء، جرحى، ناجون.

أخدم الخط يا أمي بإكمالك دراستك، تفرّغ للحوزة.

نظر إليّ غير مسرور لما سمعه، وقال: ماذا؟!

لا أعلم ماذا فعل حتى رزقه الله الشهادة، هنا تدخّلت الجدة الحاجة ورد سائلة: «لا تعلمين ماذا فعل».

أما كنت تشكين لي سهره المتواصل وقضاءه الليل في العبادة والتهجّد.

رحمة الله عليك، ترحّمت النسوة على الشهيد، ودّعن أم علي وهممن بالخروج.

خرجن كلّ واحدة إلى منزلها، أم علي توجّهت إلى خزانة الشهيد.

أمسكت حلقة الباب، قبل أن تحرّكها اطمأنّت لعدم وجود أحد حولها، ألصقت صدرها بباب الخزانة وانفجرت.

حبيبي يا علي، يا عمري مبروك يا قلبي ونظرت إلى صورته، ردّ عليّ يا ماما.

أحسّت بوقع خطى في الممر مسحت دموعها. أخرجت كيساً من الخزانة، أغلقتها وخرجت مسرعة من الغرفة.

سليمى كانت واقفة عند الباب، متى عدت يا امي؟
الآن.
أراك تحملين كيساً إلى أين أنت ذاهبة؟
عليّ واجب يجب أن أقوم به يا سليمى، إبقي في البيت.
إنتظري إخوتك حتى يعودوا من المدرسة، وادعي لي فبعون الله لن أتأخر.
لن أتركك تذهبين وحدك، يمكننا أن نوصي جدتي لتبقي إخوتي عندها حتى نعود، أنا متأكدة أنّهم سيسرّون كثيراً.
كما تريدين يا سليمى. لننطلق قبل عودة والدك.
إنطلقنا نحو الشارع العام، وقفنا وما هي إلا دقائق حتى توقّفت لهما سيارة سألهما سائقها، إلى أين يا أختي؟
إلى روضة الشهداء بجانب مسجد الإمام علي عليه السلام. أجابته أم علي.
إلتفتت سليمى إلى والدتها، حبست دمعة في مقلتها، وصمتت بعد أن تجاوز السائق حي الشيخ حبيب آل إبراهيم. قالت له أم علي لو سمحت نريد أن ننزل أمام المدخل الجنوبي.
سألتها سليمى لماذا؟ فضريح أخي أقرب إلى المدخل الشمالي.
أجابتها: أعلم لكنني أريد أن أسلّم على رفاقه قبله.
ترجّلتا من السيارة عند المدخل، شكراً يا أخي آجرك الله.
وقفت أم علي عند الدرجة الأولى توجّهت: «السلام عليكم يا أهل لا إله إلا الله، من أهل لا إله إلا الله. بحقّ لا إله إلا الله، كيف وجدتم قول لا إله إلا الله، يا لا إله إلا الله، بحقّ لا إله إلا الله إغفر لمن قال لا إله إلا الله، واحشرنا في زمرة من قال لا إله إلا الله

محمداً رسول الله عليّا وليّ الله».

السلام عليكم يا أمراء النصر والتحرير.

مبروك يا أولادي، أثمرت دماؤكم نصراً، إنحنت لمست زنبقة عند ضريح الشهيد حيدر، حيث كان الضريح الأول قرب الدرج.

توجّهت أم علي إلى سليمى قائلة: أنظري يا أمي كم تحب الورود والدة الشهيد حيدر، بالله عليك هذه الورود أجمل أم تلك التي تحفّ بضريح الشهيد مهدي أو أحمد أو حسين تتقدّم وهي تشير إلى الأضرحة يميناً وشمالاً.

بينما كانتا تتقدّمان نحو الشمال وأم علي تبارك للشهيد تلو الآخر، توقّفت. صلّت على محمد، دمعت وقالت: «آتية إليك يا روحي».

هل شممت يا سليمى؟

كيف لا يا أمي، ورود عبيرها يمجّد الخالق.

توقّفت أم علي أمسكت كتف ابنتها وقالت: وردة المنثور تناديني، علي ينتظرك يا ماما. هل شممت أجمل منها. وأسرعت.

جثت أم علي على ركبتيها أمام الضريح، نظرت إلى الصورة مسحتها بيدها، قبّلتها.

السلام عليكم يا أمي.

مبروك يا علي، إفرح، نبتت زنابق غرستها قبل ستة أشهر، تحرّرت الأرض، عاد الأسرى.

والآن حان الوقت.

وأخرجت من الكيس الذي كانت تحمله، ثوب تخرّج أسود أرسلوه

لها من المعهد مع شهادة نجاحه بالدراسة، علّقته على جانب الصورة الأيسر.

ثم أخرجت عمامة بيضاء عمّمه بها علماء حوزة الرسول الأكرم ﷺ، وضعتها على الجانب الأيمن.

بقي هناك في الكيس شيء ضمّته إلى صدرها وبكت، خافت سليمى على والدتها فسألتها: «ما بكِ يا أمي؟».

«ماذا بقي معك؟».

«لا شيء يا سليمى».

إنه القميص الأبيض الذي بقي في الخزانة.

أخرجته، شمّته، قبّلته، إنّه جميل تحت ثوب التخرّج يا علي، جميل تحت العباءة السوداء، يا عمري.....

واستدارت تعتني بالورود التي زرعتها حول الضريح، تمسك وردة الجوري الحمراء تارة وتمسك بزهرة المنثور البنفسجية أخرى ثم تنظر إلى الصورة وتقول: «الجوري جميل يا علي لكن المنثور رائحته أجمل».

تقدّمت سليمى عانقت والدتها قائلة: «هيا يا أمي فلنتوجّه إلى المنزل، إرحمي نفسك يا أمي».

اتركيني يا سليمى اشتقت لعينيه، اشتقت لخطواته نحوي.

وقفتا بباب الروضة، غادرتا كمن يغادر ضريح وليّ معصوم، خاطبتهم:

هنيئاً لكم يا أحبّائي

هنيئاً لكم صياح النورس

من يديكم ولد الصباح، بدمائكم مزّقتم حجاباً عن وجه الشمس، فولدت زهور الحدائق وأطلّ على الأرض سلام غافر الأرض فانتشت الورود تغمر الكون، تلملم الحزن صارخة أنتم الفجر، أنتم الصباح، أنتم العيد.

فاطمة

١٧ ربيع الأول ١٤٢٦

الموافق ٢٦ نيسان ٢٠٠٥